

أفلا يتدبرون القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا
وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ
الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ
خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

الأنفال

تؤكد هذه الآية الكريمة من سورة الانفال قيمة التوافق بين ادعاء الايمان والعمل بمقتضاه ، وتطالب من آمن بالرسالة الربانية وصدّق بنبوة محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام أن يتبع قوله بعمله عن طريق اطاعة الله ورسوله والثبات على تلك الطاعة والمرابطة عليها رغم الصعوبات والمحن ، أذ تبين بعض كتب التفسير انها نزلت في ذكر بعض المسلمين ممن كان يحارب مع الرسول في احدى وقائع الاسلام الاولى .

ويحذر الله جل وعلا في هذه آذانهم وظاهر القول هنا أنه يقصد الأوامر الحربية وإن كان لفظه أعَمْ.

وتبين الآية بعد ذلك احد مكامن الخطر في النفس الانسانية الذي تمثل في سلوك المشركين آنذاك ممن كان يستجيب بقوله سمعنا كما في الآية «واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا» بينما هم في حقيقتهم ودخيلة نفوسهم يضمرون عدم الاستجابة ولا تتأثر قلوبهم ونفوسهم وبعد ذلك جوارحهم بما يسمعون «ولهم آذان لا يسمعون بها»

الاعراف ١٧٩

أو كما تصف الآيات من سورة الملك اعترافهم في النار اذ يقولون «ولو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير»

الملك ١٠

فالايات تشير الى الفرق الواضح بين السمع اي تلقي

الكلام الحق وهو صوت عن طريق الأذن ، وفي الثانية السمع بمعنى الطاعة والانقياد لما يتضمنه الكلام الحق المسموع ٠

ويبيّن الله تعالى بعد ذلك احدى الحقائق الربانية التي يمكن استعمالها في تطبيقات عديدة في الحياة العملية . فرغم أنه جل وعلا قد رفع من شأن الانسان ومنحه من قدرات السمع والفهم ما لم يعطه غيره ممن يدب على الارض ويتحرك فيها كما تقول الآية الكريمة (ولقد كرمّنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا).

رغم كل ذلك يمكن أن يتراجع هـذا الانسان ليصبـح «شر الدواب» في ميزان الله اذا هو لم يستمع الى الهدى ولم يبذل جهده للتعرف على الحق أو البحث عنه فهو لا يفهم كلام الله الميسر ، ولا يفهم ما يريد ، كشأن الدواب لها آذان ولكن لا تفهم ما يطرق سمعها ، ولها ألسنة ولكنها لاتنطق واكثر من ذلك فمثل اولئك لا يعقلون فهم لم يستعملوا عقولهم للمقارنة بين الأرباب أو الاديان فيحملون رحالهم عند من لايضر ولا ينفع شيئاً أو عند هوى غالب أو عصبية ضيقة.

وقد يخيل لبعض المؤمنين أن تقصيرهم في إيصال كلما الحق الى الآخرين من أبناء المجتمع إما لضعف امكاناتهم أو عدم توفر الفرص أو المبلغين هو علة الضلال وسبب كثرة الفساد والمعصية عند من يحيط بهم ولكن الله تعالى لايتحدث هنا عن جهد الانسان الضعيف القليل الامكانية المحدود الطاقة وأثره بل يتحدث عن نفسه جل وعلا فيؤكد أن هؤلاء العصاة لو كان فيهم حسن السريرة ولو ثبت عندهم اي استعداد للتعرف على الحق وقبوله ومن ثم رسوخه على نفوسهم لكان الله تعالى أول من يتأثرون بكلامه ويهتدون بهداه من يتأثرون بكلامه ويهتدون بهداه٠ ولكن الله تعالى علم أنهم ليسوا طلاب حق بل همهم ذواتهم ومصالحهم : يرحبون بما يلائمها وإن كان باطلا ، ويرفضون مايخالفها وإن كان حقاً ٠

ورغم ذلك ولعدالة الله تعالى جلّ وعلا ورحمته التي وسعت حتى هؤلاء المبطلين وأصحاب الهوى فأنه يقول :

«وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» وذلك إلقاء للحجة واتماماً للبيان ، بعد ذلك كله يبين الله تعالى أن هؤلاء باقون على ما هم عليه حتى ولو بعث لهم الرسل وأنزل عليهم الآيات اذ سيتولون أي يتراجعون ويبدلون وينكرون وهم مدبرو الوجوه . كالحو النظرات والسمات .

ولا شـك أن السمـاع والاستماع في هذا الاطار لا يتعلق بحاسة السمع التي نتبادل عن طريقها الكلام والاصوات بل بالقبول والرضا والالتزام بما تتنزل به الايات الكريمة وما تفرضه الشريعة من اعمـال وواجبات . ولاتبقى مع هذه الكلمات الصريحة من القرآن حجة لمتأخر أو عذر لمتردد في طاعة الله تعالى واتباع سبل رضوانه ●